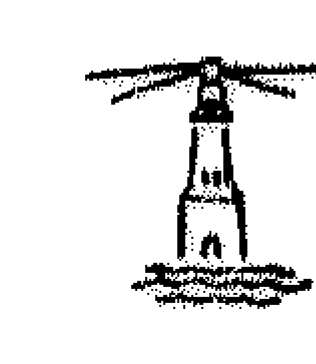
الأستاذ الإمام محمد عبده

# رسالة التوحيد

تحقيق

محمود أبو ريّة





دار المعارف بمصر

# رسالة التوحيد



تأليف

الأستاذ الإمام محمد عبده

أعدها للنشر على أصل صورتها الكاملة
التى كتبها المؤلف بقلمه، وطبعت فى حياته
وراجعها وقام على طبعها

محمود أبو ريّة

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر
١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

# (رسالة التوحيد)

تأليف

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده المصرى
أحد أعضاء مجلس ادارة الازهر الشريف
والمستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

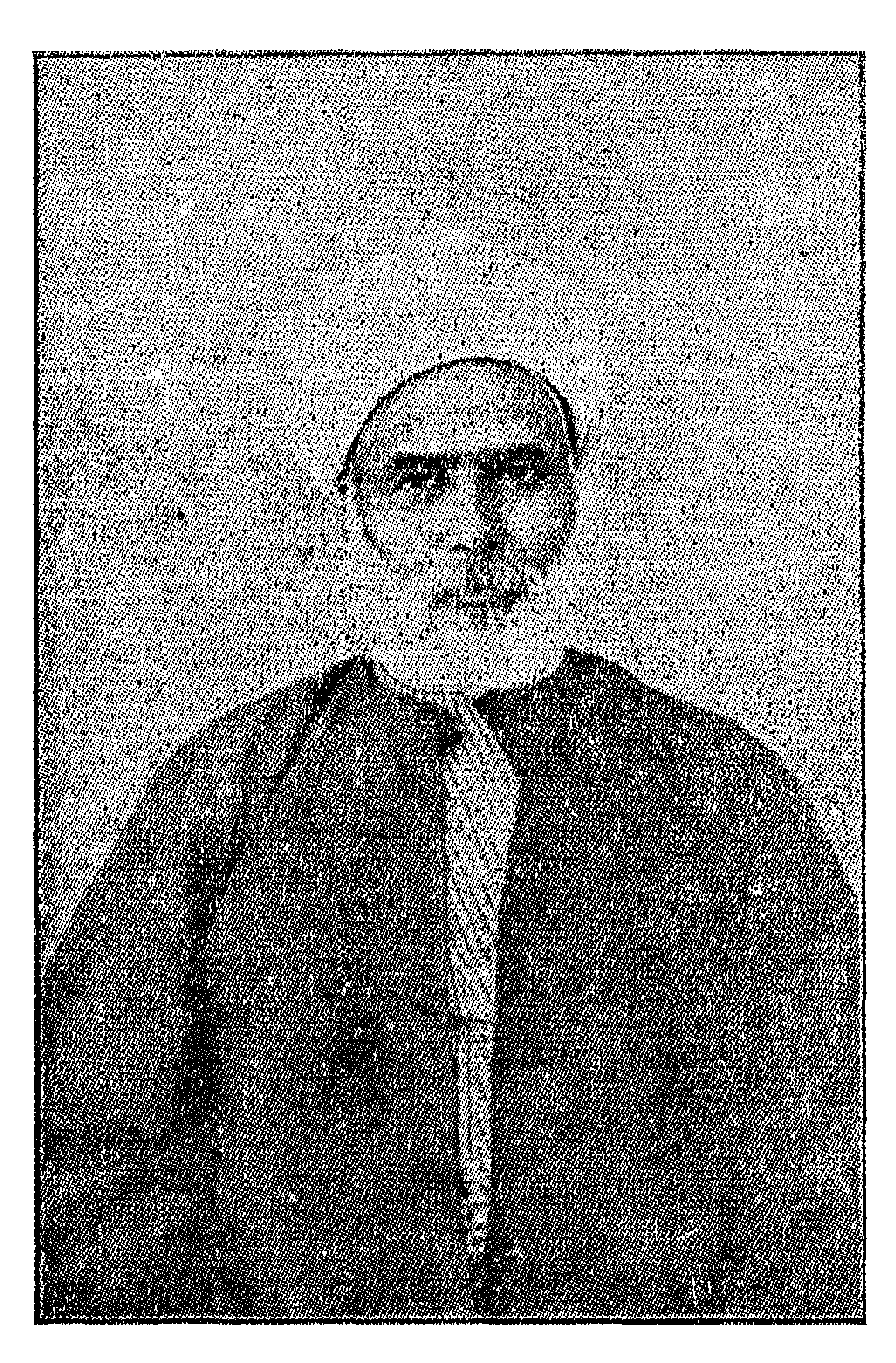


( وتطلب من عند السيد عمر الخشاب الكتبي بالسكة الجديدة والازهر )

( الطبعة الاولى )

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه
سنة ١٣١٥
هجريه
( بالقسم الادبي )

صورة بالزنكراف للصفحة الأولى من الطبعة الأولى



المرحوم
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
ولد سنة ١٢٦٦ وتوفي سنة ١٣٢٣
هجرية

هذه الصورة أخذت عن أصلها من الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الناشر

لست بحاجة — وأنا بسبيل الكلام فى تقديم رسالة التوحيد للقراء — إلى أن أعرف الناس بمؤلفها ولا أن أنوه بنفاستها ، فمؤلفها إمام العصر الحديث فى الدين والحرية والإصلاح بلا منازع ، وهو أول من بين للناس فى عصرنا هذا ما هو الدين الإسلامى على حقيقته ، وعرضه فى أصدق صورته ، كما جاء على لسان من بعثه الله به ، وأنه بمبادئه وأحكامه وأغراضه يسير مع أرقى النظم الصالحة للحياة فى عصرنا الحاضر وفى غيره من العصور ، وأثبت بالبراهين القوية أنه صالح لكل زمان ومكان على مد الدهور ، وحقًّا ما قاله فيه تلميذه الكاتب البليغ السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رحمه الله : إنه يكاد يكتب الشريعة بقلم صاحبها .

وقال عنه المشير أحمد مختار باشا الغازى : إنى أعتقد أن دماغ هذا الرجل هو أعظم دماغ عرف ، وأنه لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الإفرنج وزن أدمغتهم .

وقال عنه الكاتب الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله : إنه أعظم

مسلم بعد نبي الإسلام فى هذا العصر الحديث [١] وقال مستر بلنت فى كتابه ( التاريخ السرى للاحتلال ) ، وهو يتحدث عن فيلسوف الشرق ومصلحه السيد جمال الدين الأفغانى : « أما عباءة المصلح نفسه فقد ألقيت على خير عاتق يحملها ، بل لا أغالى إذا قلت : إنها ألقيت على عاتق أقوى من عاتق صاحبها الأصلى ـــ الشيخ محمد عبده » . وقال الشيخ مصطفى عبد الرازق : كان بين الطوائف الراقية من المصريين والأجانب محبوباً معظماً معترفاً له بمقام الإمامة الذى لا يساميه مقام ، وانتشر صيته فى أقطار الشرق وتوجهت إليه الأنظار. ولا أطيل الكلام فى وصف هذا الإمام العظيم لأن المعروف لا يصح أن يعرف [٢] ولله در الشاعر شوقى حيث يقول [٣] :

---

( ١ ) ذكر ذلك فى مقال طويل نشر بجريدة الأخبار الصادرة يوم ١١ / ١٢ / ١٩٦٣ وقد كسر له كتاباً كبيراً نشر فى أول سلسلة أعلام العرب بعنوان « عبقرى الإسلام والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده » .

( ٢ ) من أراد أن يطلع على ماقيل فى رثاء الأستاذ الإمام فليرجع إلى الجزء الثالث من تاريخه الذى بلغت صفحاته ٤٢٨ ملئت كلها بأقوال الأفريقى والآسيوى والأوربى والأمريكى والعربى والتركى والفارسى والملاوى والسنى والشيعى والنصرانى واليهودى مما لم يحصل مثله لغيره على مد التاريخ كله .

( ٣ ) فى ديوان شوقى صدر البيت هكذا : هل كلام العباد فى الشمس إلا . ولكن الأمير شكيب أرسلان ذكره كما نقلناه هنا فى صفحة ٢٠ من كتابه « شوقى أو صداقة أربعين سنة » وقد اعتمدنا على النص الذى أورده الأمير شكيب لأنه كان يعلم عن شعر صديقه ما لم يعرفه غيره .

ما كلام الأنام فى الشمس إلا أنها الشمس ليس فيها كلام

أما رسالة التوحيد هذه فهى خير ما صدر عن يراعة هذا الإمام الحكيم ، وحسبها فضلاً أنها نالت إعجاب وتقدير جميع العلماء مسلمين وغير مسلمين .

وقد قال فيها تلميذه الأول الفقيه المحدث السيد رشيد رضا رحمه الله :

« إن علم العقائد قد ارتقى فى مصر بنشرها ، وتدريس المؤلف فى الجامع الأزهر لها : وقال : ينبغى أن تجعل مادة الدعوة إلى الدين الإسلامى وقد ترجمها علماء الهند بلغة الأردو ليدرسوها فى مدرسة عليكرة الكلية ، وترجمها بعض المستشرقين باللغة الفرنسية وطبعوها ، وقرّظها علماء النصارى وقال بعضهم عند ما قرأها :

« إذا كان ما فى هذه الرسالة هو الإسلام فأنا أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف دينى يقول :

ينبغى أن يكون الإسلام كذا .

ووصفه العلامة محمد فريد وجدى بأنه أبلغ من كتب فى هذا العصر [1] .

وقد ترجمها كذلك إلى اللغة الفرنسية مرة أخرى العلامة الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله.

* * *

(١) فى خطاب بعث به إلينا منذ نيف وخمسين سنة .

أملى الأستاذ الإمام هذه الرسالة وهو ببيروت أيام أن كان منفيًّا بها على أثر الثورة العرابية ، ولما رجع إلى مصر عاوده الحنين إلى تدريس علم التوحيد فالتمس ما كان أملاه ببيروت حتى وجده عند أخيه « حمودة عبده » وكان أحد الطلاب الذين أمليت عليهم هناك هذه الرسالة ، فزاد فيها وغير حتى هيأ منها رسالة طبعها بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٣١٥ هجرية ، ثم قرأها دروسًا فى الجامع الأزهر ، وأثناء تدريسها بدت له فيها نواحى تحتاج إلى تنقيح وتصحيح[1] وكان يضع ذلك فى هوامش النسخة التى كان يقرأ فيها ، ثم جمع ذلك كله فى جدول بلغ أكثر من سبعين موضعًا . وبعد ذلك أعاد السيد رشيد رضا رحمه الله طبع هذه الرسالة على نسخة المؤلف التى صححها بقلمه ، وفاته أمر مهم ذلك أنه لم يبين مواضع هذه التصحيحات ولا أشار إلى أصلها ، وما كانت عليه فى أولى طبعاتها قبل أن تمتد يد التغيير إليها ، حتى يعلم الفرق بين ما كانت عليه الرسالة فى أصل وضعها ؛ وما صارت إليه بعد تدريسها ـ وهذا أمر لا بد منه ، ذلك بأن الناس حراص على أن يقفوا على آثار عظمائهم ، ومعرفة ما قد يكون قد اعتراها من تغيير أو تبديل أثناء حياتهم ، وتراهم أشد حرصًا وأعظم شوقًا للحصول على كتب هؤلاء

---

(١) قال العماد الأصفهانى : إنى رأيت أنه لايكتب إنسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

العظماء أو الطبعات الأولى منها – ومؤلفنا ولا ريب أعظم رجل نبغ فى عصرنا هذا ومثله ممن يحتفظ بالجليل والدقيق من آثاره .

ومن أجل ذلك لم نستطع الاهتداء إلى هذه المواضع إلا بعد أن لقينا نصباً فى مقابلة الطبعة الأولى بالطبعة المنقحة حرفاً حرفاً وكلمة كلمة .

وثم نقص آخر خطير فى كل ما ظهر من هذه الطبعات ذلك أنه قد حذف منها صفحة جليلة ذات أهمية كان الأستاذ الإمام قد قرر فيها بسمو حكمته وبارع بلاغته ، رأيه الحكيم وقوله الفصل فى مسألة (خلق القرآن) فحسم الخلاف بما يرضى العلم والعقل ، ويطمئن به القلب والوجدان ، ومن شاء أن يستزيد فهماً لهذا الأمر الجليل وإيضاحاً ، فليرجع إلى حاشية الإمام على العقائد العضدية ليقرأ فى الصفحات ١٨٤ – ١٩٠ قوله مبسوطاً وفيه فصل الخطاب . ولأمر ما رآه الإمام فى زمانه أشار بحذف هذه الصفحة لا أنه قد رجع عما جاء فيها ، ومن يوم أن عرف الناس أمر هذه الصفحة المحذوفة وهم فى لهف وشوق لأن يعثروا عليها ، ويقرأوا ما فيها لكى يقفوا على رأى هذا الإمام الكبير فى ذلك الموضوع الخطير الذى يهم المسلمين جميعاً أن يعرفوه ، وبخاصة بعد أن تحدث التاريخ بأنه كان فى فترة من الزمن معترك الأفهام ، ومزلة الأقدام ومن أجله نشأت تلك المعركة التى أثار غبارها الخليفة المأمون[1] .

---

(١) خلص الأمر للخليفة المأمون فى سنة ١٩٨ هـ .

ومن أجل ذلك كله جاءت كل الطبعات التى صدرت من هذه الرسالة ناقصة غير كاملة ، ولحرصى الشديد على آثار الأستاذ الإمام محمد عبده الذى أعتبره لى الأستاذ الثانى فى هذا العصر بعد السيد جمال الدين الأفغانى — وأفتخر بذلك ما دمت حياً — بحيث لم يفوتنى من هذه الآثار شىء ، وأحرص ما استطعت على أن تظل باقية محفوظة ، وكانت رسالة التوحيد من أهم آثاره رضى الله عنه ، فقد استخرت الله فى أن أسعى فى إخراج هذه الرسالة النفيسة فى صورة كاملة مستوفاة من جميع نواحيها بحيث تحمل الأصل الذى ظهرت به فى أول طبعة لها منذ سبعين سنة ، مع بيان كل المواضع التى جرى قلم المؤلف فيها بتصحيح أو تنقيح ، أو زيادة أو حذف . وفيها تلك الصفحة التى حذفت منها ، وأثبتها فى مكانها ، حتى لا يحرم الناس الاطلاع عليها ، والانتفاع بها. ورمزت لذلك كله برسم نجمة *

أما هوامشها فقد أبقيت على ما أيقنت أن مصدره المؤلف نفسه ، لأنها بين أن تكون مما سمعه السيد رشيد بأذنه كما ذكر ذلك فى أغلبها ، وبين أن يكون قد اقتبسه من نور علم شيخه ، وما كان من عنده فقد تركت أكثره ولم أعرج عليه .

* * *

وإنى إذ أقدم اليوم بين يدى هذه الطبعة الفريدة لمغتبط أيما اغتباط ، أن أهديت إلى المثقفين من العلماء ، والدارسين مسلمين وغير مسلمين أعظم

ذخيرة علمية دينية ، وأجل أثر من آثار الأستاذ الإمام محمد عبده الذى لا يجحد أحد بسمو فضله ، ولا يمترى إنسان فى علو قدره .

وإن هذه الطبعة التى تبدو اليوم مجلوة فى حلتها الجديدة لتعتبر — ولا ريب — أكمل وأضبط طبعة خرجت إلى الآن من هذه الرسالة — والحمد لله .

محمود أبو رية

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

( وبعد ) : فلما كنت فى بيروت من أعمال سوريا أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ، ودعيت فى سنة ١٣٠٣ لتدريس* بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد ، رأيت أن المختصرات فى هذا الفن قد لاتأتى **على الغرض من إفادة التلامذة والمطوّلات تعلو ***عن أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ما هو أمس بحالهم فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى فى أسلوب لا يصعب تناوله وإن لم يعهد تداوله تمهيد مقدّمات وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل وإن جاء فى التعبير

---

* إلى تدريس .

** ربما لا تأتى .

*** تعلو على أفهامهم .

على خلاف ما عهد من هيئة التأليف رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد
حتى قد لا يدركه* إلا الرجل الرشيد غير أن تلك الأمالى لم تحفظ إلا فى
دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسى منها شيئاً ، وعرض بعد ذلك ما استقدمنى
إلى مصر وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على
ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، إلى أن خطر لى من مدة
أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسى ويصبو إليه عقلى وحسى ، وأن
أشغل أوقات فراغى بمدارسة شىء من علم التوحيد علماً منى أنه ركن العلم
الشديد ، فذكرت سابق العمل وتعلق بمثله الأمل ، ** ولكيلا أنفق من
الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى إنشاء ما أرى التعويل عليه ، عزمت
أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلى ما تلقاه بين يدى ، وذكرت
ذلك لأخى (١) فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الأولى فطلبته وقرأته فإذا
هو على مقربة*** مما أحب قد يحتاج إليه القاصر وربما لا يستغنى عنه
المكاثر على اختصار فيه مقصود ووقوف عند حد من القول محدود
قد سلك فى العقائد مسلك السلف ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن
الخلاف بين المذاهب بعد مَمليه عن أعاصير المشاغب لكن وجدت فيه إيجازاً

* ربما لايدركه .

** حذف هذا السطر :

ولكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى إنشاء ما أرى التعويل عليه ( وهو ماتحته خط )

*** فإذا هو قريب .

(١) هو حمودة بك عبده وكان تلميذاً فى المدرسة السلطانية فى ذلك العهد .

فى بعض المواضع قد لا ينفذ منه ذهن المطالع * وإغفالا لبعض ماتمس الحاجة إليه وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه فبسطت بعض عباراته وحررت ما غمض من مقدّماته وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل وتوكلت على الله فى نشره راجياً أن لا يكون فى قصره ما يحمل على إغفال أمره أو يغض من قدره فما من أحد بأصغر من أن يعين ولا بأكبر من أن يعان ** والله وحده ولىّ الأمر وهو المستعان .

* ربما لاينفذ .

** فما من أحد بدون أن يعين ولا يفوق أن يعان .

## مقدّمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته* وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهمّ أجزائه وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقة** الأكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتى بيانه . وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرن الأولى هى أن كلام الله المتلوّ حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها و إن كان أصلا لما يأتى بعدها ، وإما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه

---

* من صفات

** فى خلق الأكوان .

بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام(١) للتفرقة بينهما .

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوّات كان معروفًا عند الأمم قبل الإسلام ، ففى كل أمّة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أوّل وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود ، أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدوّ العقل نتائجه ومقدّماته ، فكان جلّ ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وإدهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فانتهج * بالدين منهجًا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجًا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه فترك الاستدلال على نبوّة النبى صلى الله عليه وسلم ** بما عهد الاستدلال به على النبوّات السابقة ، وحصر الدليل فى *** حال النبى

---

* جاء القرآن فنهج .

** فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى (ص) .

*** بل جعل الدليل.

(١) الصواب ، وأبدل الكلام بالمنطق لأن الباء تدخل على المتروك .

مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا * أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرّد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى ، وبرهن ** (١) وحكى مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة (٢) وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والإتقان على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادّعاه ودعا إليه ، حتّى فى سياق قصص أحوال السابقين ، كان يقرّر أن للخلقة سنة *** لا تغير وقاعدة لا تتبدل ، فقال : ( سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ) ، وصرح ( إن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم ) ، واعتضد بالدليل حتّى فى باب الأدب فقال ( ادفع بالّتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم ) ، وتآخى العقل والدين لأوّل مرّة فى كتاب مقدّس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرّر بين المسلمين كافة إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم

* وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا .

** ولكنه أقام الدعوى وبرهن .

*** كان يقرر أن للخلق سنة .

(١) أى الدليل الذى هو العمدة فى التحدى وإن وجد غيره .

(٢) أى حمل عليها مجالداً لها بالحجة .

بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به إليهم وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل .

جاء القرآن يصف الله بصفات وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم أو فى الجنس [1] ، كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها فى الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للإنسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه فى هذه المقدّمة فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل فسح مجالا للناظرين ، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحدّ ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤدّ إلى الاعتقاد بالله على ماوصفه بلا غلوّ فى التجريد ولا دنوّ من التحديد [2] .

---

(١) قولان اختار المؤلف فى الدرس أولهما .

(٢) الغلو فى التجريد مذهب المعطلة منكرى الصفات ، والدنو من مذهب المشبهة ، وبينهما مذهب السلف الوسط ، وهو أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، ويقرب منه مذهب متكلمى الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل دون التأويل لبعض الصفات والأفعال .

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم ، وما كان من اختلاف قليل ردّ إليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ويفوّضون فيما يوهم التشبيه ، ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله . هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام بأهله* صدمة[1] زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها وبقى القرآن قائماً على صراطه ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون )، وفتح للناس باب لتعدّى الحدود التى حدها الدين، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر الأمر قلوب العامّة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير

---

* واصطدم الإسلام وأهله

(١) أى وقعت الصدمة على الإسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر فى القرآن الذى كفل الله حفظه فبقى حجة عليهم .

من الغالين فى دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم ، فقضيت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ يهودى أسلم وغلا فى حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه إلى مصر فوجد فيها أعوانًا على فتنته إلى أن كان ما كان مما ذكرناه، ثم ظهر بمذهبه فى عهد علىّ فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده .

توالت الأحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرّقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فى عهد مروان الأوّل فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمنًا طويلا إلى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة وانتشرت فارّتهم فى بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب [1] وغلا بعض

(١) إنه يعنى بهذه البقية : الأباضية الذين فى طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من أفريقية وفى عمان من جزيرة العرب .

الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الإسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجاً من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والأفريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الإسلام وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن اشتغالاً يحرص فيه على النقل ، ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الإخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم ، ومن أشهرهم الحسن البصرى فكان له مجلس للتعليم والإفادة فى البصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع ، وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين ، وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيها واصل بن عطاء مع أستاذه الحسن

البصرى واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وإرادته وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان فى عمله الإرادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ولا يعنون برد الناس إلى أصل وجمعهم على أمر يشملهم ، ثم يذهب كل إلى ماشاء*( سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ما وصل إليه من الحديث[1] وهو أول من جمع الحديث ) ، ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين بل امتدّ إلى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها وإلى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية حتّى ما كان منها فروعاً وعبادات ( غلوًّا فى تأييد خطة القرآن ) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى على ما سبق بيانه ، ثم غالى آخرون وهم الأقلون فمحوها بالمرّة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عناداً للأوّلين وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الإسلامى .

تفرقت السبل باتباع واصل[2] وتناولوا من كتب اليونان ما لاق

* زيد هذا السطر الذى تحته الخط .

(١) الصواب أمر بذلك أبا بكر محمد بن حزم الأنصارى مات سنة ١٢٠ هـ .

(٢) هم المعتزلة .

بعقولهم وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوّليات العقل ، وما كان سراباً فى نظر الوهم فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعدّ بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوّة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأوّلون من العباسيين ما كان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدّوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شىء وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الإلحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم .

فيما -والى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموّه وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ * كما انتهى مشوباً بمبادئ النظر فى الكائنات جرياً

* وبدأ علم الكلام كما انتهى .

على ما سنه القرآن من ذلك وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[1] وانتصر للأوّل جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدّى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ما تطرّف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروّض عليه* وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحافهم بالإسلام وأفرطوا فى التأويل وحوّلوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بُعد الخطأ عن الصواب ، وعُرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة .

---

* فرض توطين النفس عليه .

(١) قال السيد رشيد : التحقيق أن كلا من القولين مبتدع فوصف القرآن بالقدم والأزلية لا أصل له من الكتاب والسنة ولم يقل به أحد من الصحابة ولا التابعين .

وهذا الكلام الذى قاله السيد رشيد قد نقله عن العلامة المقبلى فى كتابه العلم الشامخ ولم يعزه إليه رحمهما الله .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهم دولا ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرّف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر وارتاب فى أمره الأوّلون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء كإمام الحرمين والإسفرايني وأبى بكر الباقلانى وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوّة الواقفين عند الظواهر ، وقوّة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدّى إليه من عقائد الإيمان ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدّى إلى عدم المدلول ، ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والإمام الرازى ، ومن أخذ مأخذهم * فخالفوهم فى ذلك وقرروا

* ومن أخذ مأخذهما

(١) ولد سنة ٢٧٠ هـ وقيل سنه ٢٦٠ وتوفى سنة ٣٣٠ هـ ونيف وقيل سنة ٣٢٤ هـ .

أن دليلا واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال .

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم وإفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله ( خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ) إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفيًّا ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب فى سبيلهم إلى ماهدوا إليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل ، وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى إليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام أنتم أعلم بشئون دنياكم[1] وبعد ما سنّ لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم : الأوّل : الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان خصوصًا عن أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ ( بأمر دنياكم ) .

فى تقليدهما لبادئ الأمر، والثانى روح الوقت وهو أشأم الأمرين* . زجوا بأنفسهم[١] فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة[٢] . فمال حماة العقائد عليهم ؛ وجاء الغزالى ، ومن على طريقته فأخذوا جمع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات وما يتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مبانى الدين واشتدوا فى نقده وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال ، فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامى من سعيهم .

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما نراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم[٣] وجمع علوم نظرية

* (والثانى) الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت .

(١) استئناف لبيان ثانى الأمرين وكونه أشأمهما حاصله أن الفلاسفة لو لم يخلطوا فنونهم بالدين ، ويزجوا بأنفسهم فى المنازعات الدينية لتركوا وشأنهم فى البحث وإذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف فى الدرس وكان من رأيه أنه يجب أن لا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية .

(٢) أى اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه أنفس الجمهور من المنازعات الدينية .

(٣) الظاهر أن يقال وغيرها ، أى الكتب أو غيرهما أى البيضاوى والعضد .

شتى وجعلها جميعًا علمًا واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الإسلامى فانحرفت الطريق بمسالكها ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور [1] ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانًا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا فى التضليل والتفكير وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا إسلام ، والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون ، ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط ، وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عميم .

---

(١) يعنى أن المتأخرين أساءوا اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم فى التدريس البحث فى ألفاظها وأساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها ، وكان الأستاذ الإمام يقول فيهم : إنهم يتعلمون كتباً لا علماً ، وكان يسميهم علماء المتون .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف عبثت به فى نهاية أمره أيدى المفرّقين حتى خرجوا به عن قصده و بعدوا به عن حده .

والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشدّ أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه فى صوابه وخطله .

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لااسترسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامّحاء وجودهم الملى وحقّ ما قال[1] ، فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان .

---

(١) هكذا فى الأصل .

## أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته، ومستحيل لذاته ، ويعرّفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ، ولا عدم من ذاته وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه .

## حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود ، فإن العدم من لوازم ماهيته [1] من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها وهو يؤدّى إلى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة [2] فالمستحيل

---

(١) يفسرون الماهية بأنها مابه الشىء هو هو وقالوا : إنها ترادف حقيقته فى الجملة .

(٢) قال المؤلف : إن هذا من القضايا التى قياساتها معها ، لأن سلب اللازم إنما يكون بسلب الملزوم ، وهو كون الماهية هى أى فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج وهونى لكونه زوجاً فكأنك قلت إنه زوج غير زوج .

لا يوجد ، فهو ليس بموجود قطعاً بل لا يمكن للعقل أن يتصوّر له ماهية كائنة كما أشرنا إليه ، فهو ليس بموجود حتّى ولا فى الذهن .

## أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أنه لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى ذاته على السواء فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (١) .

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والأوّل باطل ، وإلا لزم تقدّم المحتاج على ما إليه الحاجة وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدّى إلى خلاف المفروض ، والثانى كذلك وإلا لزم تساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى مؤثر ترجيحاً بلا مرجح وهو مما لا يسوّغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون

---

(١) أى لأنه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير متساويين فى آن واحد فهو من القضايا التى قياساتها معها .

مسبوقًا بالعدم فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثاً ، إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث .

الممكن لا يحتاج فى عدمه إلى سبب وجودى لأن العدم سلب والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببًا ، فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج إلى سبب وجودىّ ضرورة لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد وذلك كله بديهى .

كما يحتاج الممكن للسبب * فى وجوده ابتداء يحتاج إليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم [1] إلا للسبب الخارجى الوجودى فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها لذاته فيكون فى جميع أحواله محتاجًا إلى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ومعطى الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد و بالعلة الموجدة و بالعلة الفاعلة و بالفاعل الحقيقى ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ، ولا تتباين معانيها ، وقد يطلق السبب أحيانًا على الشرط أو المعدّ الذى يهيئ الممكن لقبول الإيجاد

* كما يحتاج الممكن إلى السبب

(١) هذا تعبير كلامى لبعضهم والترجيح يتعدى بعلى .

من موجده ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه فى الابتداء ، ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البنّاء فإنه شرط فى وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البناء واهب الوجود للبيت ، وإنما حركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شىء وبين استفادته الوجود من شىء فالتّوقف قد يكون على وجود ، ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى ، وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه ، وأن يكون وجود المستفيد مستمدّاً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

## الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات ، إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا إلى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته [1] وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجىء فى أحكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعاً .

---

(١) قوله : « له الوجود من ذاته » جملة هى خبر إن .

## وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها ، فإما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدّم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزءها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأوّل ، ولنفسه فقط إن فرض أوّل ، وبطلانه ظاهر. فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل والواجب ، والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود [1] .

وأيضًا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها ، وهو الواجب بالضرورة .

---

(١) هذه نتيجة تلك المقدمات كلها وملخصها ، أن المستحيل لا يوجد ، والممكن موجود بالفعل ويوجد دائماً ، ووجوده يدل على وجود الواجب قطعاً لأنه هو الذى يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته .

# أحكام الواجب

## القدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديمًا أزليًّا لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثًا والحادث ما سبق وجوده بالعدم ، فيكون وجوده مسبوقًا بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود ، وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديمًا لكان محتاجًا فى وجوده إلى موجد غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبًا واجبًا ، وهو تناقض محال ، ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة .

من أحكامه أن لا يكون مركبًا إذ لو تركب لتقدّم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجًا إلى وجود غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفًا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه له لذاته* من حيث هى ذاته ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون

---

* وقد قلنا إنه لذاته .

الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه .

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية[١] أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج ، وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً[٢] كاذب الصدق لا حقيقة .

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلا للقسمة فى أحد الامتدادات الثلاث أى لا يكون له امتداد لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأوّل وصار إلى وجودات متعددة ، وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركباً وكلاهما محال كما سبق[٣] .

---

(١) قوله حقيقة عقلية ، مبنى على القول بها على سبيل التوضيح ، وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لاثبوت له وقد نفاها المؤلف فى الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أى الصور التى ينتزعها الذهن من الوجود الخارجى ، وبين فى درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون فى الوجود العقلى ، ومذهب أرسطو فى كون الصور الذهنية هى حقائق هذه الموجودات الخارجة .

(٢) قوله : اعتباراً الخ خبر كان أى تصوراً مخترعاً ، لايصدق على شىء فى الواقع والعبارة عرفية منطقية لا عربية فصيحة .

(٣) سئل المؤلف فى الدرس ، هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذى يقولونه ، وهو أنه لايقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهماً ؟ فقال : إن الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ، ونحن نحمل كلام من يقول بالجوهر الفرد على الجزء الذى لاينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعاً . والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة .

# الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل ، ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال فى أىّ مراتبه ما كان مقروناً بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن فى النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال .

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها .

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن ، كما قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا ، وكل ما تصوّره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن

أن يكون له، وجب أن يثبت له، وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعدّ من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والإرادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة [1] وهى فى أىّ مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة فهى كمال وجودىّ ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حىّ وإن باينت حياته حياة الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة، ولو لم تثبت له هذه الصفة [2] لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً وقد تقدّم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ، فالحياة له كما أنه مصدرها .

---

(١) دليل فيه إضمار تقديره ، وكل ما كان مصدر النظام إلخ فهو كمال وجودى فالحياة كمال وجودى .

(٢) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود . وقوله بعده : « والواجب هو واهب الوجود » دليل ثالث .

# العلم

ومما يجب له صفة العلم ، ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف (١) منه لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ، ويمكن (٢) أن تكون للواجب . وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم .

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ، ثم هو واهب العلم فى عالم الإمكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده (٣) .

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات (٤) فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطاً بكل ما يمكن علمه ، وإلا تصور العقل علماً أشمل وهو إنما يكون لوجود أكمل وهو محال .

---

(١) بيان لمعنى العلم فى اللغة .

(٢) كتب المؤلف فى حاشية نسخة الدرس هنا ، أى بالإمكان العام .

(٣) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة وأما الصفات التى لاتعد كمالا ولا نقصاً ، وهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القبيل فيمكن هبتها مع فقدها .

(٤) هكذا اختلفت تعدية العلو بعلى وعن والعبارة فى معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقه بائناً منهم (والله من ورائهم محيط) .

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه(١) ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شىء ما وراء ذاته ، فهو أزلىّ أبدىّ غنىّ عن الآلات وجولات الفكر ، وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علماً .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الأحكام والإتقان ووضع كل شىء فى موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الأعيان كبيرها وصغيرها ، علويها وسفليها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

اعتبر بما تراه فى جزئيات النبات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج إليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوّة الميل إلى تناول مايناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزرة * الحنظل تدفن بجوار

---

(١) غنى بالشىء اكتفى به واستغنى به عن غيره .

* بذرة الحنضل

بحبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة وفى جو واحد ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المرّ الزعاق ، وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوّة من قواه إلى ما قدرت له ، فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحىّ المستقلّ فى عمله إلى الأيدى والأرجل والأعين والمشامّ والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من[1] العوادى عليه ، وحاجته إلى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النموّ والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع .

هو الذى يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا ، وأنها متى كبرت تلد أجراء[2] متعدّدة فيمنحها أطباء متكثّرة* وغير ذلك مما لا يستطاع إحصاؤه ، وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى ، وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أوّل البحث .

هذا الصنيع الذى إنما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على

---

* أطباء كثيرة

(١) لعل (من) زائدة .

(٢) الأجراء جمع جرو والأطباء جمع طبى بالكسر وهى حلمات الضرع .

دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ، الذى أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى ، هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة (١) أن يكون ينبوعاً لهذا النظام وواضعاً لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ، كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

## الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة (٢) بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل على حسب علمه ، ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للإرادة إلا هذا .

(١) الصدفة كلمة استعملها المولدون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف فى تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادفة وتركها هنا سهواً ، أو مراده المسمى فى عرف الناس بالصدفة .

(٢) يعنى الوجوه المتقابلة التى لاتجتمع كما يعلم مما يأتى .

أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فإن هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردّد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

## القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الإيجاد والإعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته فلا ريب يكون قادراً بالبداهة لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان .

## الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار إذ لا معنى له إلا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة ، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه

عليه النقد فيأتيه تنزهًا عن اللائمة تعالى* عن ذلك علواً كبيراً، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال فى الكون إنما هو تابع لكمال المكوّن وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسموّ مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون) ، وهذا هو معنى قولهم إن أفعاله لا تعلل بالأغراض ولكنها تتنزه عن العبث** ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفى شىء من حكمتها عن أنظارنا***(١) .

## الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتًا ووصفًا ووجوداً وفعلاً ، أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجًا وعقلا ، وأما الوحدة فى الصفة أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود ، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب

* تعالى الله .
** ولكنها تنزه عن العبث .
*** عن الأنظار .
(١) قد تخفى حكمة الشىء عن البشر زمناً طويلا ثم تظهر ، كما ثبت كثيراً ، وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كالآلة الميكانيكية .

الوجود فى مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات ، وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ونعنى بها التفرّد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهى ثابتة لأنه لو تعدّد واجب الوجود لكان من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، وإلا لم يتحصل معنى التعدد وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتى لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق ، وقد قدّمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات ، فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من

الممكنات لأن كل ممكن* لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعدّدة وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [١] لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله .

---

* لأن وجود كل ممكن

( ١ ) تقرير لكون قوله تعالى ( ٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ) برهاناً قطعياً لا دليلا إقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية ، والمراد بقوله فيهما السموات والأرض المذكورتان في آية سابقة قريبة .

## الصفات السمعية التى يجب الاعتقاد بها

ما قدّمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدّعوة إليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى إليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع وتصديقاً لما أخبر به .

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأناً من شئونه قديماً بقدمه .

## «الصفحة الناقصة من الكتاب»

« أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم »
« فلا خلاف فى حدوثه ولا فى أنه خلق من خلقه ، وخصص »
« بالإسناد إليه لاختياره له سبحانه فى الدّلالة على ما أراد »
« إبلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ظاهراً »
« وباطناً بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه »
« سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقول »
« بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم »
« بنسبة التغير والتبدّل إليه ، فإن الآيات التى يقرؤها القارئ »
« تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت » .

« والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضلّ اعتقاداً من »
« كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها ، »
« وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب »
« بشر فى وجوده ما يمس شرف نسبته ، بل ذلك غاية ما دعا »
« الدين إلى اعتقاده ، فهو السنة وهو ما كان عليه النبىّ »
« وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة » .

« أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذى فرّق الأمة »

« وأحدث فيها الأحداث خصوصًا فى أوائل القرن الثالث »
« من الهجرة وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق »
« فقد كان منشؤه مجرد التحرّج والمبالغة فى التأدب من »
« بعضهم ، وإلا فيجلّ مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن »
« يعتقد أن القرآن المقروء قديم ، وهو يتلوه كل ليلة »
« بلسانه ويكيفه بصوته » [١] .

* * *

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهى ما به تنكشف المبصرات وصفة للسمع وهى ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة* [٢]

---

(١) هذه هى الصفحة التى حذفت من الطبعة الأولى ، وخرجت سائر الطبعات بعدها بدونها.

ويراجع ماقاله الأستاذ الإمام فى موضوع كلام الله بالصفحات ١٨٤ – ١٩٠ من حاشيته على العقائد العضدية ففيه البيان المحكم فى هذا الأمر ، ونقف هنا على كلام الأستاذ الإمام بجواب للبخارى صاحب الكتاب المشهور فى الحديث ، فقد سئل عندما قدم نيسابور سنة ٢٥٠ م عن ( اللفظ بالقرآن ) فقال : « أفعالنا مخلوقة ، وألفاظنا من أفعالنا » .

وقال الإمام الغزالى فى كتابه ( مشكاة الأنوار ) وهو يتكلم عن الصورة التى أعطاها الله لآدم ، جامعة لجميع أصناف مافى العالم مانصه : إنها مكتوبة بخط الله الذى ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتاً وحرفاً ، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً »ص ٧١ من طبعة وزارة الثقافة.

* ولا باصرة مما هو معروف لنا .

(٢) وكذلك علمه ليس بآلة الدماغ ، ولا بوجدان القلب .

## كلام فى الصفات إجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . أما الوصول إلى كنه [1] حقيقة ما ، فمما لا تبلغه قوته لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره . خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها فى علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس .

---

(١) كنه الشىء جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هى معرفة الإحاطة التى ليس وراءها غاية . والاكتناه معرفة الكنه كاكتناه الماء وهو معرفة عناصره .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله إن كان سليماً إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت ، وصرف للقوّة إلى غير ما سيقت إليه .

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهي نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها ، وهل هي عرض أو جوهر ، هل هي قبل الجسم أو بعده ، هل هي فيه أو مجردة عنه ، كل هذه صفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حيّ له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة ، فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك ، بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه ، بل وكذلك * شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ، ماذا يكون اندهاشه ** بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي .

* بل كذلك .

** ماذا يكون دهشه .

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة مَن هذه آثاره وعليها تجلت أنواره ، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام ، وتخالف الأنظار فى الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوىّ منها على الضعيف .

وأما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركب فى ذاته ، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوّة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكة ، عبث لأنه سعى إلى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدّى إلى الخبط فى الاعتقاد لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيه * .

---

* وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها .

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلى أبدى حى عالم مريد قادر متفرّد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه ، أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشؤون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضلّ فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع ، فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدّمنا *.

* من الخائضين .

# أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص[1] فلا يطوفنّ بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا ، فإن ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبق الإشارة إليه.

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط أخوة تفرّقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد حتى إذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق* بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدوّ يريد مقارعته على ما بيده فاستحرّ بينهم القتال وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح

---

* ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق .

(١) الإمكان الخاص عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضرورى ، أى لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم .

وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين ، نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وتحقيق وعيده فيمن تعدّى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الإيجاب حتى ظنّ الناظر فى مزاعمهم أنهم عدّوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلَّبًا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وهو أحكم الحاكمين ، وأصدق القائلين جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرّح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ، والكذب فى أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع ولا يدرى إلى أىّ غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنردّ إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً

خاصًّا كان أو عامًّا لو كشف للعقل من أىّ وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثًا ولعبًا ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل — لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مرادًا لفاعله بالفعل وإلا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربًا كاد يلسع طفلا * أو دفعت صبيًّا عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ، ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وإن كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر ** كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ، هذه كلها مسلّمات لا ينازع فيها أحد .

صنع الله الذى أتقن كل شىء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والأرض ، وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره وما صانه عن الفساد الذى يفضى به إلى العدم ، وفيه ما استقامت

---

* كادت تلسع طفلا .

** فما ظنك بموجد كل عقل .

به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحكم التي نعرّفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ما له إليه الحاجة ، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا ، لا يمكن القول بالثاني وإلا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة ، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعدّ ذلك من الحكمة كما سبق .

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته ، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ما وعد وأوعد به فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه وهو أصدق القائلين [1] وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب

(١) كتب المصنف في طرة نسخته هنا مانصه : ولا يقال إن غاية حكمته الوجوب عليه ، لأنه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية . لأنه المبدع الذي لا يتأثر بشيء ولا يحكم عليه أمر مما أراده .

إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيات السابق إيرادها وعلى ما يليق بكمال الله و بالغ حكمته ، وجليل عظمته والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » ؟

وقوله لاتخذناه من لدنا ، أى لصدر عن ذاتنا المتفرّدة بالكمال المطلق الذى لا يشوبه نقص وهو محال ، وإن فى قوله إن كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق[1] .

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين ، فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوّز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوّز فيسمى الحكمة غاية وغرضاً وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يردّه عن إطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مزاعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه

---

(١) القياس هو قوله فى الصفحة الماضية ، ( فهذه الحكم التى نعرفها الآن ... إلخ ) .

حتى* بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً فى جانبه فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل إلى نهايته وفيها ما فى سوابقها ، ولكن الله أكبر ، هل يصح أن تكون سعة المجال ، أو التعفف فى المقال سبباً فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرّق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال ؟

---

* ولو بعفة اللسان .

## أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدّرها بإرادته ، ثم يصدرها بقدرة مّا فيه ويعدّ إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك[1] فى نفسه يشهده أيضاً فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته أوّل مرة مرشداً له فى الأخرى فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب الاخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته ، وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله كأن هب[2] ريح فأغرق بضاعته أو نزل* صاعق فأحرق

---

* أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته .

(١) الظاهر حذف الباء فإنه من شهود الشيء لا الشهادة كما فى سابق القول ولاحقه .

(٢) الريح مؤنثة - ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازى .

ماشيته أو علق أمله بمعين فمات أو بذى منصب فعزل يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوّة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته ، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرّفه على مقتضى علمه وإرادته خشع وخضع وردّ الأمر إليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذى شرّفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سرّ القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرّقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة

العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق ، وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الإيمان .

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدّى إلى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ،وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار فى الحرب بغير قوّة الجيوش والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا ، هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه وردّ الأمر فيما فوق القدرة البشرية ، والأسباب الكونية إلى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية ، الأوّل أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ما هو وسيلة لسعادته ، والثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمدّ العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه ، جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن

يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك، وهذا الذى قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم وعول عليه من متأخرى أهل النظر إمام الحرمين الجوينى رحمه الله وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف إلا اعتقاده أن الله صرّفه فى قواه فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

وأما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا وإنما هو من شَرَه العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار ، ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوّة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم ، على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم[1] .

---

(١) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات .

لو شئت لقرّبت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوّع الأنواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتّى تلزمه خواصه وكذا الحال فى تميز الأشخاص فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الإنسان ومن مميزاته حتّى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكراً مختاراً فى عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شىء منها لكان إما ملكًا أو حيوانًا آخر والفرض أنه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شىء فيها من القهر على العمل ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر ، والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شىء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل .

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة ، وليس لشىء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزمًا ولا مانعًا ، وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ .

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعنى عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدون موافقاً لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وإن أدّى ذلك إلى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم ويل للخابط ذلك قلب لسنة الله فى خلقه وتحريف لهديه فى شرعه عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم .

## حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل .

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين الألوان بعضها مع بعض — ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى نراه عليه الآن وإن اختلفت الأذواق ففى الأشياء جمال وقبح .

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلمّ به العقل من الموجودات المعقولة وإن اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة

وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصائر لاحظيه وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان عن أثر الإحساس بالقبيح فى المحسوسات وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل والسقوط فى الهمة وضعف العزيمة ، ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحيانًا بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ، فالمرّ قبيح مستبشع والملك الدميم المشوّه الخلقة ينبو عنه النظر لكن أثر المر فى معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فإن جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ، ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو إذا أضرّ واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر .

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الأفعال الاختيارية كما قال فى الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلمّ بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة .

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب فى نفسه تجد النفس منه

ما تجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » وكإيقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ، ومنها ما هو قبيح فى نفسه يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوّه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونقع المذعورين [1] .

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأوّل كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان ، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألمًا مما لا يحصى عدّه ، وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود اللهم إلا فى قوّة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجرّ إليه من الضرر ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر .

---

(١) نقعهم ، صياحهم يقال نقع الصوت إذا ارتفع .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع إلى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات ، فإن ذلك مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل ، وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضع[١] لقصر مدّته وطول مدة مايجر إليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى إلا بالموت على أسوإ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم ، ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدّت الحياة مثاراً لها .

ومن المؤلم الذى عدّه العقل البشرى حسناً مقارعة الإنسان عدوّه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه فى الإحساس ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحدّدها عقله ، ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئاً بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة .

---

(١) فى هذا الموضوع .

وعدّ من اللذيذ المستقبح مدّ اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدّى، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشرى وفرّق فيه بين الضار والنافع وسمى الأوّل فعل الشر ، والثانى عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حدّدهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده ، وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوّتها ، وإن كان المحدّدون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

كل هذا من الأوّليات العقلية لم يختلف فيه ملىّ ولا فيلسوف فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه فى جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال ، كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيتها فجاءت نملة كأنها القائمة

بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان إلى الحد الموافق ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ، فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدّها أشد حمقاً من النمل .

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فإذا وصل مستدلّ ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وإنها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضارّ لها بعده بإيقاعها فى الشقاء ، فأىّ مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه .

أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فما لا يستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه .

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حدّ ما إليه الحاجة لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضارّ على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع .

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حدّ ولا تختص معيشته بجوّ من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سدّ عوزه وتوفير لذاته فى أىّ إقليم وعلى أىّ حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار .

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة والمفكرة ، فالمذكرة * تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه

---

* فالذاكرة .

أو الأضداد الحاضرة فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده كما هو بديهيّ والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ويهمز للنفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى الفكر فى تدبير الوسيلة إليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه .

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألمًا لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سدّ حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره بإعطاء المضطرّ ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخر له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالاً مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد إلى

استعمال قوّته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخلّ بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسنّ سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله . وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما بينا فى المثالين — فلقوّة الذاكرة وضعفها وحدّة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضارّ فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضارّ وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلمًا فى الحال وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعًا ويتقى ضارًّا ، فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة ، اللهم إلا فى قليل ممن

لم يعرفهم الزمن فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوّة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسلك السعادة فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه * الله بكمال العقل ونور البصيرة وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده وهوتفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما .

ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية ، وكبعض الاحتفالات فى الديانة

---

* ممن اختصهم الله .

( ١ ) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها .

الموسوية وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته .

لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجاً فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له فى الحياتين ، إلى مُعين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه ، حتى يكون من بنى جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهناً على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعدّ فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن إدراكه ، وذلك المعين هو النبىّ .

النبوّة تحدّد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم ، لكنها لا تحتّم إلا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوّات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات

التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشيء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فإن زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وإنما جاء الشرع مبينًا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك ، وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف ( أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ) ، يشير بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، وأما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوتهم وهى قاعدة سعادتهم وإليها مآلهم فيما اعتقدوا وإن طال الزمان ، فكما جاء الشرع مطالبًا بالاعتقاد جاء هاديًا لوجه الحسن فيه .

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها وكثيراً ما تبين

فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يحدث ريبًا فى الاعتقاد بأن للكون إلهًا واحداً قادراً عالمًا حكيمًا متصفًا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شىء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشرّ فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان[1] على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه[2] ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوّة يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده[3] وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوّى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينًا .

---

(١) هو أن لا يبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم .

(٢) لأنه لا يصل إلى المستحيل الذى يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذى هو مشرق الإيمان .

(٣) أى يدعونه ويتقربون إليه بما شرع لهم من الدين ، لا بوسائط من الخلق تقربهم إليه كحجاب الملوك ووزرائهم .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون فى تلك الخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ماتقوم به المصالح العامة ولاتفوت به المنافع الخاصة [١] ، يعودون بالناس إلى الألفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلفتونهم [٢] إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها [٣] قلوبهم ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز فى الطلب حدّه وأن يعين قويهم ضعيفهم ويمدّ غنيهم فقيرهم ويهدى راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردّوا إليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود [٤] والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء [٥] .

---

( ١ ) أى كالزكاة .
( ٢ ) ويلفتونهم .
( ٣ ) أى المحبة .
( ٤ ) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب .
( ٥ ) أى لا فرق بين مسلم وكافر وقوى وضعيف وقريب وبعيد .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرّضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محاظيره [1] .

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به [2] مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر أو إرضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحلّ أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى ، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .
ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرّسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكنّ من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات فى نموّها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم

---

(١) فى محظوراته .
(٢) كالملائكة والجن وأحوال الآخرة .

وتسابقت فى الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك، يزيد فى سعادة المحصلين * ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرّج فى الكمال وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعدّ الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

وأما ما ورد فى كلام الأنبياء من الإشارة إلى شىء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون، وإلا ضاعت الحكمة فى إرسالهم، ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم [١] .

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان،

---

* يزيد من سعادة المحصلين .

(١) أى إذا كان القسم الأول الذى يحتاج إلى التأويل والتفسير قليلا كما دل عليه كلمة (قد) فهذا أقل منه . وأكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم فى الفهم برفع بعضهم درجات فى العلم .

بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

## اعتراض مشهور

قال قائل إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعدّ للوثبة ولا ينتظر إلا مجىء النوبة، حشو جلودهم الظلم، وملء قلوبهم الطمع، عدّ أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم، ويخربون ديارهم، إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الأمر للقوّة لا للحق والدين،

فيما هو الدين * الذى تقول إنه جامع الكلمة ، ورسول المحبة ، كان سبباً فى الشقاق ومضرماً للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول فى جوابه : نعم ، كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم ، وإلا فقل لنا : أىّ نبىّ لم يأت أمته بالخير الجمّ ، والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس بل الكل إلا قليلا ، لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى إصلاح العمل — فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ، ثم انصب نفسك واعظاً بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها ، فأىّ الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتهم * وردّها إلى الاعتدال فى رغائبها ؟

---

* فيها هو ذا الدين .

* مهاجمة شهواتها .

من البديهى أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان مضارّ [1] الإسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر ، وإنما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شؤونه إليه ، المحيط بما فى نفسه الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستخذى الغضب وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع ، ويسخطهم إذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيوناً بكت وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت لواعظ الدين . ولكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضارّ ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما

---

(١) قوله فى بيان إلخ هو المفعول الثانى لقوله لا تجد .

قوام الملكات هو العقائد والتقاليد[1] ولا قيام للأمرين إلا بالدين، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم.

قلنا إن منزلة النبوّات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلَم — المنصوب على الطريق المسلوك بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر. وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره فيتردّى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه. يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد. وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرّة شيء ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر. ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها، ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله — كذلك الرسل عليهم السلام، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكبّ فى مهاوى الشقاء، فالدين هاد والنقص يعرض لمن دُعوا إلى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين».

---

(١) التقاليد هى العادات الموروثة. قاله المؤلف فى الدرس.

ألا إن الدين مستقرّ السكينة وملجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة ، وإلى من دونه فى المال والجاه ، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية .

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية .
الدين قوّة من أعظم قوى البشر ، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به إلى أصوله الطاهرة الأولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع إليه قوّته ، وتظهر للأعمى حكمته .

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرّة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به ، وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى كما لا يستقلّ الحيوان فى درك*

* فى إدراك .

جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا بدّ معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا[١] كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله ، والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال . كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها وأنها آتية من قبل الله ؟ وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدّق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدّى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدّين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فإن ذلك مما تتنزه النبوّات عن أن تأتى به ، فإن جاء ما يوهم ظاهره** ذلك فى شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض إلى الله فى علمه ، وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأوّل ومنهم من أخذ بالثانى .

** ما يوهم ظاهر ذلك .

(١) قال المؤلف فى الدرس : : هذه القضية مهملة . تصدق بالبعض . فلا يناقضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج إلى إدراكه .

## رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلمّ بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء [١] إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنفض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغارّين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنها الله له « إنا هديناه السبيل [٢] » ، ليبلغ بسلوكها كماله ويصل على نهجه إلى ما أعد فى الدارين له ، ولكنا نستعين من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرّخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف .

---

( ١ ) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر ، وصرح به المؤلف فى الدرس وكذلك قوله « و إلى وقس نار » على ذلك .

( ٢ ) قال المؤلف فى الدرس : المراد بالسبيل والطريق ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .

كانت دولتا العالم ، دولة [١] الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظُلَم من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حدّ ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقوّاد ورؤساء الأديان من كل أمة وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حدّ فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الإتاوات حتّى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضُروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى الألباب ففقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها .

(١) بيان للكلمة التى استعارها من التاريخ .

قال فى الدرس : وفاتنى وقت الكتابة ذكر دولة الصين فإنها كانت أيضاً ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان .

ولكن بقى لها من قوّة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات ليقذفوا بها فى عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدوّ العقل وعدوّ كل ما يثمره النظر إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت فى معارفهم وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأوّل وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب

الفوضى في العقل والشريعة معا، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخرُ كل قبيلة في قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها وسلب أموالها، تسوقها المطامع إلى المعامع ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصًا من عار حياتهن أو تنصلاً من نفقات معيشتهن، وبلغ الفحش منهم مبلغًا لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته، ويمنحه عنايته ويمدّه من القوّة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التي أظلت رؤوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأوّل عام الفيل « ٢٠ أبريل

سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي بمكة ، ولد يتيمًا ، توفى والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال إلا خمس جمال[1] وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك ، وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضًا فاحتضنه جدّه عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب ، وكان شهمًا كريمًا غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدّب ، بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنًا وعقلاً وفضيلة وأدبًا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهىّ لم تجد العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصًا مع فقر القوّام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعًا والناس منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سلمًا وهم شاغبون[2] صحيح الاعتقاد

---

(١) قيل خمس وقيل تسع .

(٢) استشهد المؤلف لهذا فى الدرس بقصة اختلاف القبائل فى وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق ، وما كان من إصلاحه بينهم بما أرضاهم كلهم .

وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيا إن كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[1] ولكن الأمر لم يجر على سنته بل بغضت إليه الوثنية من مبدإ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله « ووجدك ضالا فهدى » لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

وجد شيئاً من المال يسد حاجته ، « وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته

(١) كأمية بن أبى الصلت وعمرو بن نفيل .

بعد ذلك زوجًا لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم تَسْتَرْقِهُ الدنيا ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن* زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة « ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشرّ الذى تولاه ، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحى من المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هى أن ترد إلىّ مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت

---

* كلما تقدمت به السن .

الخطب الخطير ! فأجابه أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب يحميه :

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش ، فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاله من الفقر ومقامه فى الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكًا أو يطلب سلطانًا؟ لا مال لا جاه لا جند لا أعوان لا سليقة فى الشعر لا براعة فى الكتاب لا شهرة فى الخطاب لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على الرؤوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل وإحياء الرمم ؟ ما كان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مقوّم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية ينصره فى عمله ، ويمدّه فى الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله ، ما هو إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوعد السماوى * قام لديه مقام القائد والجندى ، أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل ما بين وثنية مفرقة ودهرية وزندقة؟

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين

---

* ما هو إلا الوحى السماوى .

المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان وردّ كل شىء فى الوجود إليه — أهاب بالطبيعيين ليمدّوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوّروا سرّ الوجود الذى قامت به ، صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة فى الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السموات والأرض والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم.

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم[1] وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة.

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، وقطعتهم دون الأمل — مال على قرّاء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية فبكّت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدّد النكير على المحرّفين لها الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها اتباعاً لشهواتهم ،ودعاهم

---

(١) أى نسبة العبد إلى الرب ، والمخلوق العاجز إلى الخالق القادر ص ١٠٣٩ ج ١ تاريخ الأستاذ الإمام.

إلى فهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم .

واستلفت * كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً عامة وسادات إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرّفه بهما وبحرّية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع ، والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هو** فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه وليست فى الاعتقاد بوجوده ، وقرّر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قرّرت له الحكمة الإلهية من الحق .

---

* ولفت كل إنسان .

** إنما هى فى معرفة الصفات .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوّده العامل هو الإخلاص لله فى العبادة ، والإخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول ولا قوّة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ، ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمىّ مثله لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبهم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم رؤوف بهم فى شدته رحيم فى سلطته .

ماهذه القوّة فى ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان فى مظنه العجز ؟ ماهذا العلم فى تلك الأميّة ؟ ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب * الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ، ذلك

* حذف ما تحته خط :

خطاب الله القادر على كل شىء الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة بريئاً من التهمة لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أىّ برهان على النبوّة أعظم من هذا ، أمىّ قام يدعو الكاتبين إلى فهم مايكتبون ومايقرؤون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون ، فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين هبّ لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، وإن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبىّ صدّق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل قوّة بالعمل فيما أعدّت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوّة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

# القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه ، وإن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم .

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ، المعتقدون برسالاتهم.

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا فى أحكامهم وما حرّفوا بالتأويل فى كتبهم ، وشرع للناس أحكامًا تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حدّ ما قرّره ، ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم ، ثم جاء بعد ذلك[1] بحكم ومواعظ

---

(١) هذه البعدية نوعية لا زمانية .

وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم ، انصرافها فى السبيل الأمم[1] .

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقرّ الإذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتدّ جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقدئد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحدّيهم بالإتيان بمثل

---

(١) الأمم بالفتح القريب .

أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله ،وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء* ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة !

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، وبلجاج القوم فى التعدّى أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلىّ على جميع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمىّ أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه ؟ هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون كالخبر فى قوله « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » وكالوعد الصريح فى قوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » الآية ، وقد تحقق جميع ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدّى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة

* والفصحاء والبلغاء .

فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحدّاهم به ليس قضاء بشريًّا ، ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوّة مثل قوّته ، وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فإن العجز هى حجة الإفحام* وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات** عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدّمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من

* فإن العجز هو حجة الإفحام .

** وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات .

البلاغة، وقلنا «القوى البشرية» لأنه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوّة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل أن فارسيًّا أو هنديًّا أو رومانيًّا يبلغ من قوّة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبىّ وبينهم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوّة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها العاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامى وما دعا إليه على وجه الإجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

# الدين الإسلامى أو الإسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وإنى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين .

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شىء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شىء منها ، وإن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده[1] بما شاء من علم وسلطان على ما يريد

---

(١) يعنى الأنبياء .

أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له فى ذلك سنّها فى علمه الأزلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشىء من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدّماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون[1] وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص، وبتيسير خاص فى موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شىء من هذا إلا ببرهان كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[2] — والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله —

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ( ٢١ : ٢٦ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون ) .

(٢) قال المؤلف فى الدرس : لعل فى القرآن تعبير دائماً عن الاستعداد ، أى جعل لكم هذه الآلات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها ، أى وهذا ما خلقت لأجله بقرينة لا تعلمون شيئاً ، قال : والأفئدة العقول أين كان محلها سواء أكان الدماغ أم القلب .

دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها .

وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدّها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرف * من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع والرجوع إليه والاستعانة به — فذلك إنما يردّ إلى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة — تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم (١) وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع

---

* ما نعرفه .

(١) ذكر المؤلف فى الدرس هنا مفاسد المنتسبين إلى طرق الصوفية واختلافهم .

لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأبيح [١] لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم: « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » ، وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى [٢] لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته من القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية [٣] ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية أو أنها هى كإرادة الرؤساء والمسيطرين * أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين ** وأنهم واسطة النجاة وبأيديهم الإشقاء والإسعاد ،

* ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية — أو أنها هى — كإرادة الرؤساء والمسيطرين .

** الزاعمين أنهم واسطة النجاة .

(١) عبر بأبيح للإشارة إلى أن ذلك كان محظوراً عند الأمم السابقة فلم يكن يباح لأحد أن يتوجه إلى الله بدون واسطة الرئيس الدينى فيكونوا حنفاء ، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق الملتزم له ، فمن يتوجه إلى غير الله ليقربه إلى الله فليس بحنيف .

(٢) أى أن صلاتى وجميع عبادتى وحياتى وشئونها ومماتى ، وما بعده ، كل ذلك لله وحده ، لا أتوجه فيه إلى مرضاة غيره ، ولا أستعين أحداً على شيء منه استعانة معنوية ، بل إياه أستعين مهتدياً بما شرعه من الدين .

(٣) قال المؤلف : كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتى ذكرهم مرتباً .

وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين ، صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة حرًّا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقرّبهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين ، والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدى العالة ، وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرّر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره » ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربًا ولباسًا وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارًّا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدّى ضرره إلى غيره ، وحدّد له فى ذلك الحدود العامة ، بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، اللهم إلا حقًّا محترمًا تصطدم به .

أنحى الإسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر

فبدّدت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الرّاسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم[١] .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فإن الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والأزواد قليلة » ، علا صوت الإسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام — أعلام الكون ودلائل الحوادث — وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون .

صرّح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

---

(١) ذكر المؤلف منها فى الدرس : (١) احترام المرء لآبائه ومربيه . (٢) اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين . (٣) الحذر من إنكار الناس المحفين به ، واعتراضهم عليه إذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فى لم يحترم نفسه واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق ، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحياء والأموات وغير المعصومين من الخطأ فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد وسيأتى فى كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان، ليس آية من آيات العرفان، ولا مسمّياً لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدّمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وإن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا »، « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردّه إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله* وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حدّ للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتدّ تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تمّ للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم

---

* مع الخضوع فى ذلك لله وحده .

منهما ، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم إن نشأة المدنية فى أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح ، وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى إليه ، ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف [1] فذهبوا بحكمة الإرسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال

(١) أى ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه =

« ومنهم أميون لا يعملون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » ، « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » أما الأمانىّ ففسّرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة ، وظنوه ديناً ، وإذا عنّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله ، « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » ، وأما الذين قال إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها[1] فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ولم تسمُ عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإنزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به ، مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا

=ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين ، مصداقاً لما أنبأ به الرسول (ص) فى فى قوله « لتتبعن سنن من كان قبلكم » وأما تعبدنا بالقرآن فهو لأجل تدبره ، والاهتداء به ، ثم لأجل حفظه وتبليغه فهما مقصدان .

(١) حملوها بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى — كما حكاه القرآن « فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » .

العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس ، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سبباً فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة ، وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للنفقة واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرّر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين وإن كانوا إلا قليلا فى جانب[1] عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الإسلام ذلك كله وصرّح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ، قال الله : « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك

---

(١) أى بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى كلامه وكذلك تكرر استعماله (فى ناحية) .

وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات ، والآيات الكريمة* التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته ، نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر[1] وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه والعزائم إلى العمل به ، وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن

* والآية الكريمة .

(١) قوله : مما هو إلخ صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها والسياق استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله ، فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى ٥ : ٤٨ ( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ) مع الإلمام بحكمة ذلك — وهو من الحقائق التى لم يسبقه إليها سابق .

سنته ،ومتى روعيت حكمته واوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشرية ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها وسار الكافة فى مراشدهم إخوانـًا بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

وأما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئـًا إلى راشد فى عقله كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النموّ قائمـًا على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها وإن اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرّع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا .

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن

يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يأتى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان أو يرقى إليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه[1] .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاماً ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ووجدت الأنفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء

---

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية وما يليها فهو صفة المسيحية .

دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الأهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسنّ للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم إليه فلاقى من تعلق النفوس ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهبّ القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادّته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل ، هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرّقوا شيعاً وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشدّ أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه وفى غيره من دقائق الأكوان والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة ، فصرّحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جدّ فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوّة ، وأفضى الغلوّ فى ذلك بالأنفس إلى نزعة

كانت أشأم النزعات على العالم الإنسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين فتقوّض الأصل ، وتخرّمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام .

* * *

كانت سن الاجتماع البشرى قد بلغ* بالإنسان[1] أشدّه ، وأعدّته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعدّ كلا الأمرين طهراً مطلوباً وجعل روح العبادة الإخلاص ، وإن ما فرض من الأعمال إنما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات** « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

* كانت سن الاجتماع قد بلغت .

** من التحلى بمكارم الأخلاق .

(١) ذكّر الأستاذ الإمام ضمير السن هنا وفى تفسير جزء عم سهواً ، ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها فى جزء عم بعد طبعه ونسى تصحيحها هنا فصححناها اتباعاً لتصحيحه هناك وإن كان التأنيث مجازاً .

والمنكر » ، « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعًا ، وإذا مسه الخير منوعًا إلا المصلين » ، ورفع الغنىّ الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه ، وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعى فى صلاح الدنيا .

التفت إلى أهل العناد ، فقال لهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام ، والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوّج من أهل الكتاب وسوّغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ، ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة إنما تكون بعد التحابّ بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف * ، ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء

---

* زيادة بعد كلمة روابط الائتلاف هذا نصها :

وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه قال تعالى ٣٠ : ٢١ (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) .

ذلك إلا زهيداً يقدّمونه من مالهم ونهى بعد ذلك* عن كل إكراه فى الدين[1] ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم » فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أىّ ضرب من ضروب القوّة فى الحمل على الإسلام فإن نوره جدير أن يخترق القلوب ، وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به ، ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه » ، لا « عليكم أنفسكم » ، كما هو ظاهر لكل عربى ، كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى بالجنس** والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعدّه الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها

---

* ونهى بعد أداء الجزية عن كل إكراه فى الدين .

** فى الجنس .

(١) إن النهى عن الإكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية ، فالإكراه فى الدين ممنوع فى الإسلام مطلقاً .

لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً . . .

هذه عبادات الإسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة ، فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذى يغمر القوّة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير ، وأما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، وأما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوّليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان متجردين عن آثار الصنعة * وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك

---

* مجردين عن المخيط .

مع استبقائهم [1] فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين * ،واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر** » أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الإنسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم ، إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدّرها الله فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم « أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله [2] » وفيه التصريح بأن

---

* حذف ما تحته خط .

** وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل ( الله أكبر ) .

استبدل بها هذه العبارة : وهم مع هذا الإذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الإسلامية مقرون بما يدل على التنزيه وتقديس الله عما يوهم التشبيه .

( ١ ) لعل الكلمة استباقهم أو تسابقهم .

( ٢ ) كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن النبى ( ص ) فظن بعض الناس أنها كسفت لموته فقال ، رواه البخارى وغيره ورواية مسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها، ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم والمصائب التى يرزؤون بها ، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه، فكثير منها كالثروة والجاه والقوّة والبنين ، أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها * أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم « إنا لله وإنا إليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالإسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

* ربما يكون كاسبها .

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الأهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الأمانة واستشعار الأخوّة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة « من يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوّته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل[1] وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » ، أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم إنه لم ينزل

---

(١) الباء فى الاستبدال تدخل على المتروك .

بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً .

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ثم فرض ذلك فى قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ، فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » ، ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة ، فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ،

فقدّم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان فى هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفاً لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه .

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين[1] سداً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين ، وأىّ دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

---

(١) يفيض به الغنى على الفقير .

أغلق الإسلام بابى الشر وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريمًا لا هوادة فيه .

لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ولا أمًّا من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر ، وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتلُ القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى ، هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق إلا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب ، وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدّث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً » .

## انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الإيذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ، ينبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب ، وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطباء الحاذقين : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون »، تألبت

الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء والفقير للأغنياء ولا ناصر له إلا الحق بين الأباطيل والرشد فى ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة ، وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو إليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على [illegible] بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحاً ، ولا أنالهم [illegible] فلاحاً .

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير [illegible] ماضيهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر [illegible] إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزئوا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث إليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الأمم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم ،وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم و يغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، و برهانهم الغلبة وحجتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، و يقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أنّ الإسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلا و إحساناً عندما كان يعدّها الأوربيون ضعةوضعفاً .

رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات وردّ الأموال المسلوبة إلى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم .

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا ، وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام ، لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صدّ عن سبيل الدين لا محالة[1] * .

---

* زيادة بعد كلمة لا محالة هذه العبارة « ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال » .

(١) شكا إليه عامله بمصر ذلك فأجابه : إن محمداً (ص) بعث هادياً و لم يبعث جابياً.

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا .

اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً ، وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم ؟

ظهور الإسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادّة القويمة حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسمعيل * وإن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء

---

* بعد اسم إبراهيم وإسماعيل هذه الزيادة : وتحقيق استجابة دعاء الخليل ٢ : ١٢٩ (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) .

على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الإيمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات ، وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة ، فإذا نزت شهوة أوغلب هوى كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة .

تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه إليهم ، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل إلى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه ، فتراموا إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه .

كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها ، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها ، والمبادرة إلى رغيبتها؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن

لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ،فجاء دين يحدد الحقوق ويسوّى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ، ويسوّغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجداً ، فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه [1] ،عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو؟ ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما ، هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه ، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ، ثم يرتحل فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الإسلام فى انتشاره عند حد، خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ،

---

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة الذى أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) .

ولم يخلُ زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع إليه لا سيف وراءها، ولا داعي أمامها، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً ترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه ، هذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى ، وطهارته التى أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم .

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته؛ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته ، وإن وقع اختلاف

فى تفصيله ، وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم ، وكفاً للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالإسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه .

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوّة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجىء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق عن الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين ، إن فى ذلك لآيات للمستيقنين .

* * *

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين ، سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مدّه حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الأرض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان قد استحجر

من الأرواح ، فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو من غلَب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه ، إذا ساق الله ربيعاً إلى أرض جدبة ليحيي ميتها وينقع غلتها ، وينمي الخصب فيها أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به .

سطع الإسلام على الديار التى بلغها أهله ، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراء* لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم ، جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم**.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة[1] لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية

* وكاد يتزحزح إلى ما وراءه . ** فعادوا بسعادتهم .

(١) بيان للحروب الصليبية لإبادة الإسلام من الشرق .

للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدّوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين * وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها .

لِمَ جاءوا؟ وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية ، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء ** جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدّروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها ، تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالفين وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا إلى ما كسبه السفّار من أطراف الممالك إلى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة

---

* وزحفوا إلى ديار المسلمين .

** وذوى الثروة وعلية الناس .

ما كسبوا ، وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته ، وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسمًا ولا يختلف معنى ، إلا فى صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوربا تَفتَكّ من أسرها وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الإسلام غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة ، هذا طلّ من وابله أصاب أرضًا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه فى شأن الإسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم . وإلى الله عاقبة الأمور .

## إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق وقال كتابه « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء » ، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟ إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عدّدوا ، إذا كان موليًا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شرًّا ، وكادوا يعدّون ذلك فصلا من فصول التوحيد .

إذا كان أوّل دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان ، وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الإمكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنًّا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجدّ والعمل ، أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟ ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم إليه فتركوه ، إذا كان الإسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأى

القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟ إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قرّاء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً* ؟ إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدّوهما إلى أغلال أى أغلال ؟ إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟ إذا كان الدين فى تشوّف إلى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار؟ إذا كان الإسلام يعدّ من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟ إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرّم الخديعة ، ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟ إذا كان قد حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن ، والنفس والبدن ؟ إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم وإن[1] الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم[2] وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر بل ترك كل

---

(١) إن هنا مكسورة حكاية لنص القرآن أى وصرح بهذا النص .

(٢) هو مضمون حديث مرفوع .

صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذاً[1] وصاروا فى أعمالهم أفراداً لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن[2] لم تجمعه معه صلة ولم تضمه إليه وشيجة ؟ ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء ، وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء ؟

قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوؤه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون ، أصحّ هذا فى عقل أو عهد فى نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوّقوا من العلم شيئاً وهم من أهل هذا الدين ،أوّل ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار ، وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوّام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ويرون العمل فيها[3] عبثاً فى الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى

---

(١) الفذ الواحد وأفذاذاً أى أفراداً .

(٢) وكأنه لم تجمعه معه صلة .

(٣) أى فى ضمن ما أرشدت إليه من النظم والفنون والصناعات .

أن يظهر به بين الناس ومن غرّته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة ، والعلم ظنة ، أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

## الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم ، بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء فى الإيراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدنيا ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الإسلامى بما يكفى للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن مع التدقيق فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الإسلام ومنصفو سائر الأمم ، فذلك هو الإسلام وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الإنسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً

ولا الأصم إعراضًا وغاية ما قيل فى الإيراد، إن أعطى الطبيب إلى المريض * دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرّع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدّل سنة الله فى شفاء أمثاله ، كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على ما بينا ، أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر إن شاء الله[1].

---

* أعطى الطبيب المريض .

(١) وفى المؤلف بوعده فوضع كتاب الإسلام والنصرانية وقد وصف هذا الكتاب أنه لا يستغنى عن قراءته مسلم فى هذا العصر ، بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين إنه ينبغى قراءته فى كل سنة ولو مرة واحدة ، وإن قارئه ليجد فيه شرحاً لكثير من المسائل المجملة فى هذه الرسالة .

## التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوّته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به، ونعني بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ، ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ، ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى ، وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين ، فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة [١] .

---

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزيه الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه فهو كاصطلاحات العلوم والفنون ، فلا يقتضى أن يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخالق من كل وجه ، بل يكفى أن يكون مناسباً له ، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ليست من الأحوال والأعراض النفسية ، ويده وأصابعه ليست من الجوارح=

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدّق بصحة روايتها ، أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعن فى إيمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئًا [١] وهو يعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حدّث به أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من أهمل فى العلم * بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل [٢] .

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئًا من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقض شيئًا من بناء الشريعة فى التكليف كان مؤمنًا حقًّا

= الجسمية ، وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشه ليس من الحركات البدنية ، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ومنه مسألة الرؤية الآتية ، وقاعدتهم فى ذلك ، أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل كما تقدم فى الكلام على الصفات . وقد قال ابن تيمية كلمة فاصلة عندما تكلم عن نزول الله كل ليلة فقال : قل لى كيف هو أقل لك كيف نزل ، وهذه الكلمة نحل بها كل صفات الله سبحانه .

* ويلحق به من أهمل العلم .

(١) أى من أمر الدين الذى هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى .

(٢) أكثر السنن المتواترة هى العملية كصفة الصلاة والحج ، وأما الأحاديث القولية المتواترة فقيل : إنها لا تبلغ أقصى جمع القلة قاله : السيد رشيد رضا .

وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله[١] فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل .

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان الاهتمام، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه ، الأولى : جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة ، والأخرى : جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء من الأولياء والصديقين .

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ، ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا[٢] وهو ما لا يمكننا معرفته وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها فسواء كان ذلك بالبصر

---

(١) يعنى أن التأويل بهذه الشروط لا ينافى صحة الإسلام ، فلا يباح تكفير صاحبه .

(٢) الإدراك فى الحقيقة للروح وإنما الحواس آلات لها .

الغير المعهود * أو بحاسة أخرى، فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم، ولكن منى الإسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون .

وأما الثانية فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحق الإسفرايني من أكابر أصحاب ** أبى الحسن الأشعرى وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصرى فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة ، واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب [1] فى خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف ، واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات وأوّلوا ما جاء فى الآيات ، أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها

---

* بالبصر غير المعهود .

** أتباع أبى الحسن .

( ١ ) قال بعض المفسرين فى تفسير ( قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ) إنه وزير لسليمان اسمه آصف بن برخيا فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلاً ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع وإنما هو من الإسرائيليات . وقال بعضهم: إنه سليمان نفسه ورجحه النيسابورى – وقال بعضهم إنه جبريل وبعضهم إنه ملك آخر .

وجملة القول ، أن إحضار العرش معجزة لنبى الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات .

كذلك ما قالوه فى مسألة الرزق عند مريم وأنه فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه لم يصح فيه حديث مرفوع ، فهو من الإسرائيليات كما بينته فى تفسير المنار اهـ من تعليق السيد رشيد رحمه الله .

حوادث تميزها عما سواها ، وأما ما احتج به المجوّزون من الآيات فلا دليل فيه لأن ما فى قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلا ، وأما قصة أهل الكهف فقد عدّها الله من آياته فى خلقه وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز ، فبقى البحث* فى جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر ؛ وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أىّ كرامة كانت من أىّ ولى كان ، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشىء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم** اللهم إلا أن يكون مما

---

* فصار البحث .

** زيادة بعد كلمتى ( الصراط المستقيم ) هذا نصها : إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة .

صح فى السنة عن الصحابة ، أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء[1] وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون .

---

(١) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء ولا سيما الموتى المشهورين كالذين يسمونهم الأقطاب الأربعة المتصرفون فى شئون العالم كله ، وأنهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله ، أو مع الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضر وغير ذلك ( لا إله إلا الله وحده لا شريك له ) .

# خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ، وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة « وأنا لما سمعنا الهدى آمنّا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ، قل إنى لا أملك لكم ضرًّا ولا رشداً ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغًا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى

من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » .

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسئ الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم .

## تنبيه

وإنا نلفت أنظار القراء إلى أننا قد حافظنا فى نشر هذه الرسالة على النص الأصلى لها كما بدا فى الطبعة الأولى التى صدرت عن المطبعة الأميرية فى سنة ١٣١٥ هـ ، أى منذ سبعين سنة كاملة بغير أن ننقص منه حرفاً ، أو نغير كلمة كما تقضى بذلك الأمانة العلمية وأصول نشر الكتب القديمة ؟

أما ما أدخله مؤلفها الأستاذ الإمام على الرسالة من تنقيح أثناء إلقائها دروساً بالجامع الأزهر ، وكتبها بقلمه ، فقد أثبتناها كاملة فى هوامش الصفحات التى تناولت هذه التنقيحات ما فيها من ألفاظ أو عبارات ، وجعلنا لها علامة هذه النجمة ( * ) .

وما زيد على هذه التنقيحات مما نقله السيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام وهو يستمع إليه فى تدريس هذه الرسالة بالأزهر ونشره فيما كان يصدره من طبعات هذه الرسالة بعد الطبعة الأولى ، وما أضفناه نحن من عندنا من شرح بعض ألفاظ وهو قليل ، فقد جعلنا كل ذلك فى الهوامش بأرقام عددية مسلسلة ، كما بينا ذلك فى المقدمة .

وأما ما حذفه المؤلف من أصل الرسالة فقد أشرنا إليه بوضع خط تحته .

# الفهرست

صفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

## هذه الرسالة

آية من آيات الإسلام ، ظهرت على يد هذا الإمام ، فى بيان حقيقة الدين الإسلامى وأغراضه . خرجت فى أسلوب بليغ يحرك النظر و يدعو إلى التفكير . لم تدع شبهة على الدين إلا وكشفتها ، ولا عقدة من المشكلات إلا وحلتها ، قال فيها فريد وجدى إنها تشير إلى أكبر معارك الفلاسفة فى الأديان مع ما يوافق الإسلام منها و رد مايخالفه. وقال أحد علماء النصارى : لو كان ما فيها هو الإسلام لآمنت به ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذى نؤمن بفضله . ترجمت بلغة الأوردو لتدرس بكلية عليكرة ، وترجمت بالفرنسية مرتين وأخيراً نشرتها بالإنجليزية دار ALLEN & UNWIN, LTD. بلندن أما المؤلف فهو غنى عن التعريف فقد اعترف له بمقام الإمامة الذى لا يساميه مقام .

وقال المشير أحمد مختار باشا الغازى التركى : إنى أعتقد أن دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف ، وأنه لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الإفرنج وزن أدمغتهم .

وهذه الطبعة تمتاز بأنها جاءت على أصل طبعتها الأولى التى نشرها المؤلف على عينه منذ سبعين سنة — وحملت وحدها دون غيرها من الطبعات، رأيه الحكيم ، وقوله الفصل فى أمر (وحى كلام الله) الذى يهم كل مسلم أن يقف عليه ، ليعرف وجه الحق فيه .

وتعتبر هذه الرسالة أقوى مادة للدعوة إلى الدين الإسلامى .


٣٠ قرشاً ج. ع. م　　٣٠٠ فلس فى العراق والأردن　٢,٤ دراهم فى المغرب
٢٤٠ ق . ل　　٣٠٠ فلس فى الكويت　٣,١٢ ريالات سعود
٣٠٠ ق . س　　٤٥٠ مليماً فى تونس　٦ شلنات ⎫ فى البلا
٣٠٠ مليم فى ليبيا والسودان　٥,١ دنانير فى الجزائر　٠,٧٦ دولاراً ⎭ الأخر